

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(المُحَاضَرَةُ الثَّانِيَّةُ)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ

www.menhag-un.com

تَعْرِيفُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأُصُولِ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَعْرِيفُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ هُوَ:

جَاءَ التَّدَبُّرُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرًا مُشْتَقًّا مِنَ الْفِعْلِ الْمَاضِي: تَدَبَّرَ، وَقَدْ ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ لِهَذَا الْفِعْلِ وَمُشْتَقَّاتِهِ اسْتِعْمَالَاتٍ عَدِيدَةً، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

التَّدَبُّرُ: مَصْدَرٌ، فِعْلُهُ الْمَاضِي: تَدَبَّرَ، وَهُوَ فِعْلٌ مَزِيدٌ اشْتَقَّ مِنَ الْفِعْلِ الْمُجَرَّدِ الْمَاضِي: دَبَّرَ، وَمُضَارِعُهُ: يُدَبِّرُ، وَالْمَصْدَرُ دَبْرًا وَدُبُورًا، وَدَبَّرَ النَّهَارُ أَوْ الصَّيْفُ: انْصَرَمَ وَمَضَى وَانْقَضَى، وَدَبَّرَ الشَّيْءُ: جَاءَ بَعْدَهُ وَخَلْفَهُ، وَتَدَبَّرَ الْأَمْرَ تَدَبُّرًا: نَظَرَ فِي أَدْبَارِهِ - أَيَّ فِي عَوَاقِبِهِ - وَتَفَكَّرَ فِيهِ.

والتَّدَبُّرُ: النَّظَرُ فِي أَدْبَارِ الْأَمْرِ، وَهُوَ يَعْنِي: التَّأَمُّلُ فِي عَوَاقِبِهِ أَوْ مَا يُوِّوُلُ إِلَيْهِ، وَتَدَبَّرَ الْأَمْرَ: رَأَى فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرَهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، أَي: أَلَمْ يَتَفَهَّمُوا مَا خُوطِبُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

* فَخُلَاصَةُ التَّدَبُّرِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ هُوَ: النَّظَرُ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ، بِحَيْثُ يَشْمَلُ أَوْ آخِرَ دَلَالَاتِ الْكَلِمِ وَمَرَامِيهِ الْبَعِيدَةَ.

وَالتَّدَبِيرُ، وَالتَّدَبُّرُ فِي الأَمْرِ: النَّظْرُ فِي عَاقِبَتِهِ، أَي أَنْ تَنْظُرَ فِيمَا تَوُؤَلُ إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُ.

وَالتَّدَبُّرُ: التَّفَكُّرُ فِيهِ؛ أَي: تَحْصِيلُ المَعْرِفَتَيْنِ؛ لِتَحْصِيلِ مَعْرِفَةِ ثَالِثَةٍ، فَالتَّدَبُّرُ هُوَ: التَّفَكُّرُ وَالتَّفَهُمُ.

وَالتَّدَبُّرُ، وَالإِعْتِبَارُ: العِبْرَةُ، وَالإِعْتِبَارُ بِمَا مَضَى.

وَالإِعْتِبَارُ: هُوَ التَّدَبُّرُ وَالنَّظْرُ.

فَالإِعْتِبَارُ: هُوَ الحَالَةُ وَالهَيْئَةُ النَّفْسَانِيَّةُ، الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ المُشَاهِدِ، إِلَى مَا لَيْسَ بِمُشَاهِدِ.

* وَأمَّا التَّدَبُّرُ فِي الإِصْطِلَاحِ: فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّظْرِ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ التَّفَكُّرِ إِلَّا أَنَّ التَّفَكُّرَ: تَصَرَّفُ القَلْبِ بِالنَّظْرِ فِي الدَّلِيلِ؛ وَالتَّدَبُّرُ: تَصَرَّفُهُ بِالنَّظْرِ فِي العَوَاقِبِ.

* وَالتَّدَبُّرُ فِي الشَّرْعِ: هُوَ النَّظْرُ، وَالتَّفَهُمُ، وَالتَّفَكُّرُ فِي عَاقِبَةِ مَا تَوُؤَلُ إِلَيْهِ الأُمُورِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ المَجِيدِ، وَالإِسْتِفَادَةُ مِنْ ذَلِكَ فِي إِيمَانِ العَبْدِ، وَظُهُورِ أثرِهِ فِي جَوَارِحِهِ.

فَالتَّدَبُّرُ: مَصْدَرُ تَدَبَّرَ، وَهُوَ مَاخُودٌ مِنْ مَادَّةِ (د ب ر) الَّتِي قَالَ عَنْهَا ابْنُ فَارِسٍ (١): «أَصْلُ هَذَا البَابِ أَنْ جَلَّهُ فِي قِيَاسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ،

(١) هُوَ الإِمَامُ اللُّغَوِيُّ: أَحْمَدُ بْنُ فَارِسِ بْنِ زَكَرِيَّا، أَبُو الحُسَيْنِ القَزْوِينِيُّ، المَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ

خِلَافُ قُبْلِهِ. فَمُعْظَمُ الْبَابِ أَنَّ الدُّبْرَ خِلَافُ الْقُبْلِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا تَدَابَرُوا...»، وَهُوَ مِنَ الْبَابِ، وَذَلِكَ أَنْ يَتْرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْإِقْبَالَ عَلَى صَاحِبِهِ بِوَجْهِهِ»^(١).

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ^(٢): «دَبَّرَ الْأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ: نَظَرَ فِي عَاقِبَتِهِ، وَاسْتَدَبَّرَهُ: رَأَى فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرِ فِي صَدْرِهِ؛ وَعَرَفَ الْأَمْرَ تَدَبُّرًا، أَيُّ: بِأَخْرَجِهِ؛ قَالَ جَرِيرٌ^(٣):

المَالِكِيُّ، كَانَ رَأْسًا فِي الْأَدَبِ، بَصِيرًا بَفَقِهِ مَالِكٍ، مُنَاطِرًا مُتَكَلِّمًا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْحَقِّ، وَمَذْهَبُهُ فِي النَّحْوِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُوفِيِّينَ، وَكَانَ مِنْ رُوُوسِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُجَرِّدِينَ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ، مَاتَ بِالرِّيِّ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ.
انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٧ / ١٠٣، ترجمة (٦٥).

(١) «مقاييس اللغة»: ٢ / ٣٢٤، (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).

(٢) هو اللغوي القاضي: محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور، أبو الفضل الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب «لسان العرب»، الَّذِي جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ التَّهْذِيبِ وَالْمَحْكَمِ وَالصَّحَاحِ وَحَوَاشِيهِ وَالْجَمْهَرَةَ وَالنَّهْأَةَ، وَلِدَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَسِتْمِائَةَ، وَمَاتَ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَسَبْعِمِائَةَ.

انظر: «شذرات الذهب»: ٨ / ٤٩، (بيروت: دار ابن كثير، ط ١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).

(٣) هو شاعرُ زَمَانِهِ: جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ بْنِ الْخَطَفِيِّ، أَبُو حَزْرَةَ التَّمِيمِيُّ الْبَصْرِيُّ، مَاتَ فِي سَنَةِ عَشْرٍ وَمِائَةٍ بَعْدَ الْفَرَزْدَقِ بِشَهْرٍ سَنَةَ عَشْرٍ وَمِائَةٍ.

انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٤ / ٥٩٠، ترجمة (٢٢٧)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣،

١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّىٰ يُصِيبَكُمْ
وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدَبَّرًا^(١)

وَالتَّدْبِيرُ فِي الْأَمْرِ: أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَا تَتَوَلَّىٰ إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُ؛ وَالتَّدَبُّرُ: التَّفَكُّرُ فِيهِ.

وَفَلَانٌ مَا يَدْرِي قِبَالَ الْأَمْرِ مِنْ دِبَارِهِ، أَي: أَوَّلُهُ مِنْ آخِرِهِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ فَلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدِي لِيُجَهِّهَ أَمْرَهُ؛ أَي: لَوْ عَلِمَ فِي بَدءِ أَمْرِهِ مَا عَلِمَهُ فِي آخِرِهِ، لَا اسْتَرَشَدَ لِأَمْرِهِ.

وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ^(٢) لِبَنِيهِ: «يَا بَنِيَّ، لَا تَدَبَّرُوا أَعْجَازَ أُمُورٍ قَدْ وَلَّتْ صُدُورُهَا»^(٣).

(١) «ديوان جرير»: ص ١٨٩، (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، وانظر: «شرح

نقائض جرير والفرزدق»: ١٠٧٨/٣، (الإمارات: المجمع الثقافي، ط ٢، ١٩٩٨م).

(٢) هو أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ بن رِيَّاح، أَبُو حَيْدَةَ التَّمِيمِي الأَسِيدِي، حَكِيم العَرَب فِي الجَاهِلِيَّةِ، أَدْرَكَ الأِسْلَامَ وَاخْتَلَفَ فِي إِسْلَامِهِ، وَهُوَ أَحَدُ المَعْمَرِينَ؛ قِيلَ إِنَّهُ عَاشَ مِائَةً وَتِسْعِينَ سَنَةً. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة»: ١/٣٥٠-٣٥٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

(٣) أخرج بنحوه أبو نعيم في «معرفه الصحابة»: ١/٣٤٢-٣٤٣، رقم (١٠٦٥)، وابن عبد

البر في «الاستيعاب»: ١/١٤٦، وابن الجوزي في «المنتظم»: ٢/٣٧٠، بإسناد لا بأس

به، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، مرسلاً، قَالَ: بَلَغَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ مَخْرَجَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرَادَ

أَنْ يَأْتِيَهُ فَأَبَى قَوْمُهُ أَنْ يَدْعُوهُ... فذكر حديثه، وفيه وصيته: «... كُونُوا فِي هَذَا الأَمْرِ

رُؤَسَاءَ، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ آخِرًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ

حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ...».

فَهَذَا مَعْنَى التَّدْبِيرِ فِي اللُّغَةِ.

وَأَمَّا فِي الإِصْطِلَاحِ، فَالتَّدْبِيرُ: هُوَ النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ التَّفَكُّرِ، إِلاَّ أَنَّ التَّفَكُّرَ: تَصَرَّفُ القَلْبِ بِالنَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ؛ وَالتَّدْبِيرُ: تَصَرُّفُهُ بِالنَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ.

وَأَمَّا تَدْبِيرُ القُرْآنِ: فَهُوَ التَّأَمُّلُ فِي مَعَانِيهِ، وَتَحْدِيقُ الفِكْرِ فِيهِ، وَفِي مَبَادِيهِ وَعَوَاقِبِهِ، وَلَوَازِمُ ذَلِكَ.

تَدْبِيرُ القُرْآنِ: هُوَ تَحْدِيقُ نَاطِرِ القَلْبِ إِلى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الفِكْرِ عَلَى تَدْبِيرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ المَقْصُودُ بِإِنزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلا فَهْمٍ وَلَا تَدْبِيرٍ.

جامعه

مِنْهَاجُ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

أَنْوَاعُ النَّاسِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ

وَالنَّاسُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ أَنْوَاعٌ:

قَالَ تَعَالَى فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّخِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٦-٣٧].

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ (١): «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ، فَذَلِكَ الَّذِي لَا قَلْبَ لَهُ؛ فَهَذَا لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ذِكْرًا فِي حَقِّهِ.

الثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ مُسْتَعِدٌّ؛ لَكِنَّهُ غَيْرٌ مُسْتَمِعٌ لِلآيَاتِ الْمَتْلُوءَةِ، الَّتِي يُخْبِرُ بِهَا اللهُ عَنِ الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ: إِمَّا لِعَدَمِ وُرُودِهَا، أَوْ لَوْصُولِهَا إِلَيْهِ وَقَلْبُهُ مُشْغُولٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَهُوَ غَائِبٌ الْقَلْبِ لَيْسَ حَاضِرًا؛ فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَى، مَعَ اسْتِعْدَادِهِ وَوُجُودِ قَلْبِهِ.

وَالثَّلَاثُ: رَجُلٌ حَيٌّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تَلَيْتَ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، فَأَصْغَى بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَى السَّمْعَ وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهَمٍ مَا يَسْمَعُهُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ مُلْقِي السَّمْعِ؛ فَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالآيَاتِ الْمَتْلُوءَةِ وَالْمَشْهُودَةِ.

(١) «مدارج السالكين»: ١/ ٤٤١-٤٤٢.

فَالأَوَّلُ: بِمَنْزِلَةِ الأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ.

وَالثَّانِي: بِمَنْزِلَةِ البَصِيرِ الطَّامِحِ بِبَصَرِهِ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ المَنْظُورِ إِلَيْهِ؛ فَكِلَاهُمَا لَا يَرَاهُ.

وَالثَّلَاثُ: بِمَنْزِلَةِ البَصِيرِ الَّذِي قَدْ حَدَقَ إِلَى جِهَةِ المَنْظُورِ، وَأَتْبَعَهُ بَصَرُهُ، وَقَابَلَهُ عَلَى تَوْسُطٍ مِنَ البُعْدِ وَالقُرْبِ؛ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَرَاهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ!

فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ لَهُ قَلْبٌ وَقَادٌّ، مَلِيٌّ بِاسْتِخْرَاجِ العِبَرِ وَاسْتِنْبَاطِ الحِكَمِ، فَهَذَا قَلْبُهُ يُوقِعُهُ عَلَى التَّذَكُّرِ وَالإِعْتِبَارِ؛ فَإِذَا سَمِعَ الآيَاتِ كَانَتْ لَهُ نُورًا عَلَى نُورٍ.

وَهُوَ لِأَنَّ أَكْمَلَ خَلْقِ اللهِ، وَأَعْظَمَهُمْ إِيمَانًا وَبَصِيرَةً، حَتَّى كَانِ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مُشَاهِدٌ لَهُمْ، لَكِنْ لَمْ يَشْعُرُوا بِتَفَاصِيلِهِ وَأَنْوَاعِهِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ مَثَلَ حَالِ الصِّدِّيقِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ دَخَلَا دَارًا، فَرَأَى أَحَدُهُمَا تَفَاصِيلَ مَا فِيهَا وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَالآخَرَ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى مَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يَرَ تَفَاصِيلَهُ وَلَا جُزْئِيَّاتِهِ، لَكِنْ عَلِمَ أَنَّ فِيهَا أُمُورًا عَظِيمَةً لَمْ يُدْرِكْ بِبَصَرِهِ تَفَاصِيلَهَا، ثُمَّ خَرَجَا، فَسَأَلَهُ عَمَّا رَأَى فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخْبَرَهُ بِشَيْءٍ صَدَقَهُ؛ لِمَا عِنْدَهُ مِنْ شَوَاهِدٍ، وَهَذِهِ أَعْلَى دَرَجَاتِ الصِّدِّيقِيَّةِ، وَلَا تَسْتَبْعَدُ أَنْ يَمُنَّ اللهُ المَنَّانُ عَلَى عَبْدٍ بِمِثْلِ هَذَا الإِيمَانِ، فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَضْرٍ وَلَا حُسْبَانٍ.

فَصَاحِبُ هَذَا الْقَلْبِ إِذَا سَمِعَ الْآيَاتِ وَفِي قَلْبِهِ نُورٌ مِنَ الْبَصِيرَةِ، أَزْدَادَ بِهَا نُورًا عَلَى نُورِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ مِثْلُ هَذَا الْقَلْبِ، فَالْقَلْبُ السَّمْعُ، وَشَهِدَ قَلْبُهُ وَلَمْ يَغِبْ، حَصَلَ لَهُ التَّذَكُّرُ أَيْضًا: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِْبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ...﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وَالْوَابِلُ وَالطَّلُّ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَأَثَارِهَا وَمَوْجِبَاتِهَا، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ سَابِقُونَ مُقْرَبُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، وَبَيْنَهُمَا فِي دَرَجَاتِ التَّفْضِيلِ مَا بَيْنَهُمَا».

فَتَذَكَّرُ الْقُرْآنَ يَعْنِي: تَأَمَّلَ الْقُرْآنَ بِقَصْدِ الْإِتْعَازِ وَالْإِعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ.

كَلِمَةٌ (تَأَمَّلَ): اتَّفَقَ عَلَيْهَا أَغْلَبُ الْمَعْرِفِينَ لِلتَّذَكُّرِ.

وَالْقُرْآنُ، كَلِمَتُهُ هَذِهِ هِيَ الْوَارِدَةُ فِي نَصِّ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْكُفْرَانَ...﴾ [النساء: ٨٢]، وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا الْقَوْلَ...﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَّوْا بِآيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وَجُمْلَةٌ: (بِقَصْدِ الْإِتْعَازِ وَالْإِعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ): هَذِهِ نَتِيجَةُ التَّذَكُّرِ وَثَمَرَتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَذَبَّوْا بِآيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ التَّذَكُّرِ؛ تَوْجِيهُ الْخِطَابِ فِي الْآيَاتِ الْأَمْرَةِ بِهِ لِلْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ: اتِّعَازُهُمْ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ، وَاعْتِبَارُهُمُ الْهَادِي إِلَى الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الشَّرْعِ.

وَهَكَذَا يَكُونُ الْمَقْصُودُ عِنْدَ تَعْمِيمِ الْأَمْرِ لِيَشْمَلَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَالتَّذَكُّرُ مُتَوَجِّهٌ إِلَى اتِّعَازِ الْقَلْبِ وَاعْتِبَارِهِ، مِمَّا يَثْمُرُ بَعْدَ ذَلِكَ آثَارًا دَالَّةً عَلَى الْخُشُوعِ: كَوَجَلِ

الْقَلْبِ، وَالْبُكَاءِ، وَالْخَشْيَةِ، وَزِيَادَةَ الْإِيْمَانِ، وَعَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ؛ نَتِيْجَةً لِلتَّأَثُّرِ بِالْقُرْآنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكُذِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَفَسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وكذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ: هُوَ تَفَهُمُ مَعَانِي أَلْفَاظِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيْمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ مُطَابَقَةً، وَمَا دَخَلَ فِي ضَمَنِهَا، وَمَا لَا تَتِمُّ تِلْكَ الْمَعَانِي إِلَّا بِهِ، مِمَّا لَمْ يُعْرَجِ اللَّفْظُ عَلَىٰ ذِكْرِهِ مِنَ الْإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيْهَاتِ؛ وَانْتِفَاعُ الْقَلْبِ بِذَلِكَ، بِخُشُوعِهِ عِنْدَ مَوَاعِظِهِ، وَخُضُوعِهِ لِأَوَامِرِهِ، وَأَخْذِ الْعِبْرَةِ مِنْهُ.

قَالَ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، قَالَ (١): «لِيَتَدَبَّرُوا حُجَجَ اللهِ الَّتِي فِيهِ، وَمَا شَرَعَ فِيهِ مِنَ الشَّرَائِعِ، فَيَتَعَطَّوْا وَيَعْمَلُوا بِهِ».

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ طَاهِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١): «تَدَبَّرَ فِي لَطَائِفِ خَطَابِهِ، وَطَالِبِ نَفْسِكَ بِالْقِيَامِ بِأَحْكَامِهِ، وَقَلْبِكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرِّكَ بِالِاقْبَالِ عَلَيْهِ»^(٢).

وَقَالَ الْهَرَوِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣): «أَنْبِيَةُ التَّذَكُّرِ ثَلَاثَةٌ: الْإِنْتِفَاعُ بِالْعِظَةِ، وَالِاسْتِصْآرُ بِالْعِبْرَةِ، وَالظَّفْرُ بِثَمَرَةِ الْفِكْرَةِ»^(٤).

(١) هو محمد بن أحمد بن طاهر، أبو بكر الإشبيلي القيسي، أخذ عن أبي علي الغساني كثيراً واختص به، وكان مشهوراً بالحديث ومعرفته معتنياً به، ولد سنة تسع أربعين وأربع مائة، ومات سنة اثنتين وأربعين وخمسة مائة.

انظر: «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس»: ص ٥٥٧-٥٥٨، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»: ٣٨/١٩، (القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م).

(٣) هو شيخ الإسلام الحافظ الثقة المأمون: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيُّ الْهَرَوِيُّ، صاحب كتاب «ذم الكلام وأهله» وغيره، وَقَدْ كَانَ رَضِيَ اللَّهُ جِدْعًا فِي أَعْيُنِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَسَيْفًا مَسْلُوعًا عَلَى الْمُخَالِفِينَ، وَطُودًا فِي السَّنَةِ لَا تَزْعُزِعُهُ الرِّيَاحُ، وَجَرَى لَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَحَنٌ عَظِيمَةٌ، مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، عَنْ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَأَشْهُرًا.

انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٥٠٣/١٨، ترجمة (٢٦٠).

(٤) «منازل السائرين» مع شرحه لابن القيم: ٤٤٢/١.

* تَدَبَّرُ الْقُرْآنَ يَشْمَلُ أُمُورًا، وَبَيَانُهَا:

وَيُسْتَفَادُ مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ - فِي مَعْنَى التَّدَبُّرِ - أَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ يَشْمَلُ الْأُمُورَ
الْآتِيَةَ:

أَوَّلًا: مَعْرِفَةَ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ، وَمَا يُرَادُ بِهَا.

ثَانِيًا: تَأَمُّلَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ أَوْ الْآيَاتُ، مِمَّا يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ أَوْ تَرْكِيْبِ
الْجَمَلِ.

ثَالِثًا: اعْتِبَارَ الْعَقْلِ بِحُجَجِهِ، وَتَحَرُّكَ الْقَلْبِ بِبَشَائِرِهِ وَزَوَاجِرِهِ.

رَابِعًا: الْخُضُوعَ لِأَوْامِرِهِ، وَالْيَقِينَ بِأَخْبَارِهِ.

* مُفْرَدَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّدَبُّرِ:

وَأَمَّا الْمُفْرَدَاتُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالتَّدَبُّرِ، فَمَعَانِيهَا مُتَقَارِبَةٌ، تَجْتَمِعُ فِي شَيْءٍ،
وَتَفْتَرِقُ فِي آخَرَ؛ وَمِنْهَا هَذِهِ الْمُفْرَدَاتُ:

الْفَهْمُ: وَهُوَ الْعِلْمُ بِمَعْنَى الْكَلَامِ.

الْفِئْهُ: وَهُوَ الْعِلْمُ بِمُقْتَضَى الْكَلَامِ عَلَى تَأَمُّلِهِ، وَلِهَذَا تَقُولُ: تَفَقَّهَ مَا أَقُولُ،
أَيُّ: تَأَمَّلَهُ؛ لِتَعْرِفَهُ.

الْبَصِيرَةُ: وَهِيَ تَكَامُلُ الْعِلْمِ.

الْفِكْرُ: وَهُوَ إِحْضَارُ مَعْرِفَتَيْنِ فِي الْقَلْبِ؛ لِيَسْتَشْمَرَ مِنْهُمَا مَعْرِفَةً ثَالِثَةً.

التَّفَكُّرُ: اسْتِعْمَالُ الْفِكْرَةِ فِي ذَلِكَ، وَإِحْضَارُهَا عِنْدَهُ.

وَأَمَّا التَّذَكُّرُ: فَمِنْ الذِّكْرِ، وَهُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ، وَهُوَ حُضُورُ صُورَةِ الْمَذْكُورِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْقَلْبِ، وَاخْتِيَرَ لَهُ بِنَاءُ (التَّفْعُلِ)؛ لِحُصُولِهِ بَعْدَ مَهْلَةٍ وَتَدْرُجٍ، كَالْتَبَصُّرِ، وَالتَّفْقُهْمِ، وَالتَّعَلُّمِ.

فَالتَّذَكُّرُ: هُوَ إِحْضَارُ الْعِلْمِ الَّذِي يَجِبُ مُرَاعَاتُهُ، بَعْدَ ذُهُولِهِ وَغَيْبَتِهِ عَنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فَالتَّذَكُّرُ يُفِيدُ تَكَرَّرَ الْقَلْبِ عَلَى مَا عَلِمَهُ وَعَرَفَهُ؛ لِإِرْسَاحِ فِيهِ وَيَثْبُتَ، وَلَا يَمَّحِي فَيَذْهَبَ أَثَرُهُ مِنَ الْقَلْبِ.

وَالتَّفَكُّرُ يُفِيدُ تَكْثِيرَ الْعِلْمِ، وَاسْتِجْلَابَ مَا لَيْسَ حَاصِلًا عِنْدَ الْقَلْبِ؛ فَالتَّفَكُّرُ يُحْصِلُهُ، وَالتَّذَكُّرُ يَحْفَظُهُ، وَكُلٌّ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لَهُ فَائِدَةٌ غَيْرُ فَائِدَةِ الْآخِرِ.

وَأَمَّا التَّأَمُّلُ: فَهُوَ مُرَاجَعَةٌ لِلنَّظَرِ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ؛ حَتَّى يَتَجَلَّى لَهُ وَيُنْكَشِفَ لِقَلْبِهِ، وَتَحْدِيقُ نَاطِرِ الْقَلْبِ إِلَى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ.

وَالإِعْتِبَارُ: مِنَ الْعُبُورِ؛ لِأَنَّهُ يُعْبَرُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَيَعْبُرُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي قَدْ فَكَّرَ فِيهِ إِلَى مَعْرِفَةٍ ثَالِثَةٍ، وَلِهَذَا يُسَمَّى (عِبْرَةً) - وَهِيَ عَلَى بِنَاءِ الْحَالَاتِ: كَالْجِلْسَةِ وَالْقِتْلَةِ -، إِذَا نَبَّأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ قَدْ صَارَ حَالًا لِصَاحِبِهِ يُعْبَرُ مِنْهُ إِلَى الْمَقْصُودِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿...إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وَأَمَّا الْإِسْتِصَارُ: فَهُوَ اسْتِنْفَعَالٌ مِنَ التَّبَصُّرِ، وَهُوَ تَبَيُّنُ الْأَمْرِ وَانْكِشَافُهُ وَتَجَلِّيهِ لِلْبَصِيرَةِ.

* تَعْرِيفُ الْمُعَاصِرِينَ لِلتَّدْبِيرِ:

لَقَدْ عَرَّفَ بَعْضُ الْمُعَاصِرِينَ التَّدْبِيرَ بِأَنَّهُ: «التَّفَكُّرُ بِاسْتِخْدَامِ وَسَائِلِ التَّفَكِيرِ وَالتَّسْأُولِ الْمُنطِقِيِّ؛ لِلوُصُولِ إِلَى مَعَانٍ جَدِيدَةٍ، يَحْتَمِلُهَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ، وَفَقَ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ، مَعَ رَبْطِ الْجُمَلِ الْقُرْآنِيَّةِ بِبَعْضِهَا، وَرَبْطِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ بِبَعْضِهَا، وَإِضْفَاءِ تَسْأُولَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ حَوْلَ هَذَا الرَّبْطِ».

وَمِنْ تَعْرِيفَاتِ التَّدْبِيرِ: الْفَهْمُ لِمَا يُتْلَى مِنَ الْقُرْآنِ، مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ، وَخُشُوعِ الْجَوَارِحِ؛ لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ.

* مَفْهُومُ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ يَشْمَلُ أُمُورًا:

وَمُصْطَلَحُ التَّدْبِيرِ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِ مُجَرَّدَ قِرَاءَةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَتِلَاوَةِ حُرُوفِهِ، وَحِفْظِ كَلِمَاتِهِ؛ بَلِ الْأَمْرُ يَتَعَدَّى ذَلِكَ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١): «وَتَدْبِيرُ آيَاتِهِ: اتِّبَاعُهُ وَالْعَمَلُ بِعِلْمِهِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ

(١) هُوَ شَيْخُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَسَيِّدُ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا: الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: يَسَارٍ، أَبُو سَعِيدٍ الْبَصْرِيُّ، ثِقَةٌ فقيه فاضل مشهور، مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين.

الْقُرْآنَ كُلَّهُ، فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللَّهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَى لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقِي وَلَا عَمَلِي»^(١).

انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٥٦٣/٤، ترجمة (٢٢٣).

(١) «أخلاق أهل القرآن»: ص ١٠١.

أخرجه ابن المبارك في «الزهد»: ٦/٢٤٢ و ٢٤٣، رقم (٧٩٣)، والقاسم بن سلام في «فضائل القرآن»: ص ٢١٣، وسعيد بن منصور في التفسير من «السنن»: ٤٢٢/٢، رقم (١٣٥)، والفريابي في «فضائل القرآن»: ص ٢٤٦ و ٢٤٧، رقم (١٧٧ و ١٧٨)، والآجري في «أخلاق أهل القرآن»: ص ١٠٠ و ١٠١، رقم (٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: ٤/٢٠٩، رقم (٢٤٠٨)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل»: ص ٧٠، رقم (١٠٨)، بإسناد صحيح، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَيْدٌ وَصَيَّانٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَوَّلِهِ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبَرُوا بِآيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وَمَا يَتَذَكَّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتَّبَاعُهُ بِعِلْمِهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُهُ، أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللَّهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَى لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقِي، وَلَا عَمَلِي، حَتَّىٰ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفْسِي، وَاللَّهُ مَا هُوَ إِلَّا بِالْقُرَّاءِ، وَلَا الْعُلَمَاءِ، وَلَا الْحُكَمَاءِ، وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَىٰ كَانَتِ الْقُرَاءَةُ مِثْلَ هَذَا؟ لَا كَثَرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ».

وفي رواية: «تَعَلَّمَ هَذَا الْقُرْآنَ عَيْدٌ وَصَيَّانٌ لَمْ يَأْتُوهُ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ، لَا يَذَرُونَ مَا تَأْوِيلُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبَرُوا بِآيَاتِهِ﴾، وَمَا تَذَكَّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتَّبَاعُهُ بِعِلْمِهِ، وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْرُؤُهُ، ثُمَّ يَقُولُ أَحَدُكُمْ: تَعَالَىٰ يَا فَلَانُ أَقَارِئِكَ، مَتَىٰ كَانَتِ الْقُرَاءَةُ تَفْعَلُ هَذَا؟! مَا هُوَ إِلَّا بِالْقُرَّاءِ وَلَا الْحُكَمَاءِ وَلَا الْحُلَمَاءِ، لَا أَكْثَرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالَهُمْ».

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيَتَدَبَّرَ وَيَعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ

عَمَلًا» (١).

أَيَّ أَنَّهُمْ اكْتَفَوْا بِالْقِرَاءَةِ وَالتَّلَاوَةِ، وَمَعَ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ خَيْرٌ، لَكِنْ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْقُرْآنِ أَنْ يَقْرَأَهُ الْإِنْسَانُ كَمَا يَقْرَأُ الْكِتَابَ الْعَادِيَّ، وَإِنَّمَا الْهَدَفُ أَنْ يُقْرَأَ، وَيُظَهَّرَ أَثْرُ الْقِرَاءَةِ فِي شَخْصِيَّةِ الْفَرْدِ، وَسُلُوكِهِ، وَعَلَاقَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَعِبَادَاتِهِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْجَوَارِحِيَّةِ؛ وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَدَى الْمُتَدَبِّرِ الْإِسْتِعْدَادُ الْكُلِّيُّ؛ لِتَطْبِيقِ تَعَالِيمِ الْقُرْآنِ، وَالتَّسْلِيمِ بِكُلِّ أَفْكَارِهِ وَمَعَانِيهِ، وَعَدَمِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ أَوْ التَّقَالِيدِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهَا إِذَا خَالَفَتِ الْقُرْآنَ، وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ؛ فَسَيَعِيشُ فِي جَنَّةِ الدُّنْيَا قَبْلَ جَنَّةِ الْآخِرَةِ.

وَمِنَ التَّدَبُّرِ لِلآيَاتِ: أَنْ يَعْمَلَ الْمُتَعَلِّمُ بِمَا يَقْرَأُ أَوْ يَسْتَمِعُ، فَلَا يَكُونُ هُمُّهُ الْحِفْظُ فَقَطْ، فَمَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ فَقَدْ حَازَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَبْلُغَ مَرْتَبَةَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ، إِذَا لَمْ تَتَوَفَّرْ لَدَيْهِ الدَّوَاعِي لِيَعْمَلَ بِمُقْتَضَى كُلِّ مَا حَفِظَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ: هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا

فِيهِ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ» (٢).

(١) «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة: ص ١٤٨، و«مدارج السالكين»: ١ / ٤٤٩ و ٤٥٠.

(٢) «مجموع الفتاوى»: ٢٣ / ٥٥.

وَمَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ هُنَا مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَوْضُوعِ الْفُرُوقِ الْفَرْدِيَّةِ بَيْنَ الْمُتَعَلِّمِينَ، فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

فَمِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ مَنْ يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ الْآيَاتِ وَإِنِّهَا خَتَمَاتٌ بِلا تَأَمُّلٍ، وَلَكِنْ ابْتِغَاءَ الْأُجُورِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ هِمَّتَهُ فِي حِفْظِ الْآيَاتِ وَاسْتِظْهَارِهَا عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ، أَكْثَرَ مِمَّا يَجِدُهُ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ الْآيَاتِ وَتَأَمُّلِهَا.

وَمِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ مَنْ لَا تُسَاعِدُهُ خَلْفِيَّتُهُ الثَّقَافِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ، عَلَى بُلُوغِ الْمَرَاتِبِ الْعُلْيَا فِي التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ؛ بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَشْغَلُ وَقْتَهُ بِدُرُوسِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ، وَيَقْضِي مَعَهَا السَّاعَاتِ الطَّوَالَ، لَيْسَ جَهْلًا بِأَهْمِيَّةِ التَّدَبُّرِ، وَلَكِنْ لِشُعُورِهِ أَنَّ تِلْكَ الدَّرُوسَ هِيَ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ تِلْكَ الدَّرُوسَ الْعِلْمِيَّةَ تُؤَدِّي إِلَى فَهْمٍ عَمِيقٍ لِكَلَامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفَهْمٍ وَاسِعٍ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وَلَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَبَيْنَ قِرَاءَةِ كُتُبِ الْفِقْهِ، وَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَفْضَلِيَّةِ وَالْأَجْرِ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَخْتَلِفُ مِنْ شَخْصٍ لِآخَرَ، وَيُفْصَلُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِقَوْلِهِ (١): «كَلَامُ اللَّهِ لَا يُقَاسُ بِهِ كَلَامُ الْخَلْقِ، وَأَمَّا الْأَفْضَلُ فِي حَقِّ الشَّخْصِ: فَهُوَ بِحَسَبِ حَاجَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ، فَإِنْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ

وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى تَعَلُّمٍ غَيْرِهِ، فَتَعَلَّمَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ تَكَرُّرِ التَّلَاوَةِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرِهَا، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ حَفِظَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيهِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى عِلْمٍ آخَرَ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ، وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، فَتَعَلَّمَهُ لِمَا يَفْهَمُهُ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تِلَاوَةِ مَا لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ.

وَأَمَّا مَنْ تَعَبَّدَ بِتِلَاوَةِ الْفِقْهِ، فَتَعَبَّدَهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ، وَتَدَبَّرَهُ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامٍ لَا يَحْتَاجُ لِتَدَبُّرِهِ».

وَمِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ مَنْ يَكُونُ هُمُهُ فَقَطُّ الذِّكْرَ وَالتَّسْبِيحَ، وَلَيْسَتْ لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ لِفَهْمِ الْقُرْآنِ.

وَعِنْدَمَا سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَمَّنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ لَهُ: تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ مَعَ أَمْنِ النَّسْيَانِ، أَوِ التَّسْبِيحُ وَمَا عَدَاهُ؟

فَأَجَابَ (١): «الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَجِدُ فِي الذِّكْرِ مِنَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ إِيْمَانِهِ، وَانْدِفَاعِ الْوَسَاوِسِ عَنْهُ، وَمَزِيدِ السَّكِينَةِ، وَالنُّورِ وَالْهُدَى، مَا لَا يَجِدُهُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَا يَفْهَمُهُ، أَوْ لَا يَحْضُرُ قَلْبُهُ وَفَهْمُهُ».

مِنَ الْقَضَايَا الْمُهْمَّةِ، أَنْ يَعْرِفَ الْمُتَرَبِّي أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ يَكُونُ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّامُّلِ فِيمَا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ، وَمَا يَقَعُ فِي حُدُودِ إِمْكَانِيَّاتِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ، أَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ فَهُوَ خَارِجٌ نِطَاقِ الْعَقْلِ، وَالْوَاجِبُ التَّسْلِيمُ بِهَا.

فَخُلَاصَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ التَّدَبُّرَ يَقَعُ فِي الْمَعْلُومِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ التَّفْسِيرِ، وَالِاسْتِنْبَاطُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ أَمَّا مَا لَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا، فَالْوَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهَا دُونَ الدُّخُولِ فِي اجْتِهَادَاتِ لِيَانِهَا، وَهِيَ مِمَّا لَا يَحْصُلُ بَيَانُهُ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، وَمَتَى وَقَعَ طَلَبُهَا مِنْ جِهَتِهِ، حَصَلَ الْإِنْحِرَافُ وَالزَّيْغُ فِي شَرَعِ اللَّهِ ﷻ.

وَمَنْ أَمْتَلَأَ فِكْرُهُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَأَصْبَحَ هُمُّهُ فَهْمَ الْمَعَانِي؛ فَسَيَجِدُ نَفْسَهُ يَبْحَثُ عَنِ التَّطْبِيقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الْحَيَّةِ لِمَوَاضِعِ الْقُرْآنِ، وَيَسْعَى لِجَعْلِهَا مُؤَثَّرَةً فِي حَيَاتِهِ وَسُلُوكِهِ، وَسَيُقَارِنُ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ لِمَعْرِفَةِ الَّذِي تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ أَوْصَافُ الْقُرْآنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ خَيْرَ مَنْ يُمَثِّلُ تَطْبِيقَ تَعَالِيمِ الْقُرْآنِ هُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِذَا لَا بُدَّ أَنْ تُعْرَفَ الْأَجْيَالُ بِكَيْفِيَّةِ قِرَاءَةِ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَتَنْفِذِهِمْ لِمُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ...﴾ [البقرة: ١٢١]، حَيْثُ كَانَتْ قِرَاءَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، مِنَ الصَّحَابَةِ، الْقُرْآنَ، قِرَاءَةً طَبِيعِيَّةً، مُنْتَجَةً، مُفْرَزَةً السُّلُوكِ الْإِيجَابِيِّ الْفَعَّالِ، شَاحِنَةً الْوَجْدَانَ، دَافِعَةً السُّلُوكِ إِلَى جَلَائِلِ الْأَعْمَالِ، تَجَلُّو الْبَصَائِرِ؛ فَتَدْرِكُ وَظِيفَةَ الْقِرَاءَةِ فِي تَكْوِينِ عَادَاتِ التَّفَكِيرِ النَّاصِحِ، وَتَدْرِكُ الْعَلَاقَةَ اللَّازِمَةَ بَيْنَ النِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبَيْنَ التَّعْلِيمِ وَالِاسْتِثْمَارِ، وَلِذَلِكَ رَبَطَتْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَأَدْرَكَتِ الْمَعَانِي الْأَوَّلِيَّةَ وَالثَّانَوِيَّةَ.

أَصْنَافُ النَّاسِ بِالنَّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ

وَالنَّاسُ مُتَّفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا كَبِيرًا تَجَاهَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ قَسَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ النَّاسَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

«صِنْفٌ مُعْرَضٌ مُمْتَنِعٌ عَنْ سَمَاعِهِ، كَالَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وَصِنْفٌ سَمِعَ الصَّوْتِ وَلَمْ يَفْقَهُ الْمَعْنَى، كَالَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ». وَالْآيَةُ الَّتِي مَرَّتْ، وَالْحَدِيثُ، يَدُلُّانِ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٦ / ٨-١٤.

(٢) «صحيح البخاري»: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، رَقْمُ (٧١)

السَّمَاعُ الَّذِي يَفْقَهُ مَعَهُ الْقَوْلَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا أَوْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يُسْمِعَهُ وَيَفْقَهُهُ، وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَ وَفَقَهُ يَكُونُ فِيهِ خَيْرٌ.

وَصِنْفٌ سَمِعَ الْكَلَامَ وَفَقَهُهُ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يُطِعه -أَي: لَمْ يُطِعه أَمْرُهُ-، كَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِاللِّسَانِهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَنظَّمُوا أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي...﴾ [البقرة: ٧٥-٧٨]، أَيْ تِلَاوَةً.

وَصِنْفٌ سَمِعُوا سَمَاعَ فِقْهِهِ وَقَبُولِ، فَهَذَا هُوَ السَّمَاعُ الْمَأْمُورُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ آلِجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَكَمَا مَنَابِهٌ ۝٢ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

ومواضع، و «صحيح مسلم»: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، رَقْمُ (١٠٣٧)، وَفِي: كِتَابِ الْأِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي...»، مِنْ حَدِيثِ: مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ طَرَفُ الْحَدِيثِ، وَتَمَامُهُ: «...، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ.»

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُ هَذِهِ آيَاتُنَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَقَدْ مَثَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَالَ النَّاسِ مَعَ الْقُرْآنِ أَرْوَغَ تَمْثِيلٍ، فَقَالَ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ». رَوَاهُ الشَّيْخَانُ (١).

قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۗ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَعْرِضِ ذِكْرِهِ لِمَنَافِعِ الْأُتْرُجَةِ - (٢): «وَحَقِيقٌ بِشَيْءٍ هَذِهِ مَنَافِعُهُ، أَنْ يُشَبَّهَ بِهِ خُلَاصَةُ الْوُجُودِ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُحِبُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ؛ لِمَا فِي مَنَظَرِهِ مِنَ التَّفْرِيحِ».

(١) أخرجُه البخاري في «الصحیح»: كِتَابُ فَصَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ فَضْلِ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ

الْكَلَامِ، رَقْمٌ (٥٠٢٠) وَمَوَاضِعٌ، وَمُسْلِمٌ فِي «الصحیح»: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ

فَضِيلَةِ حَافِظِ الْقُرْآنِ، رَقْمٌ (٧٩٧)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «زاد المعاد»: ٤ / ٢٦٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢٧، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م).

وَشَبَّهَ الرَّسُولُ ﷺ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْغَيْثِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ عَلَى اخْتِلَافِ صِفَاتِهَا بِالْأَرْضِ، فَأَرْضٌ طَيِّبَةٌ وَأَرْضٌ خَبِيثَةٌ؛ فَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةً، قَبِلَتْ الْمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ؛ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانُ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ (١).

تَأَمَّلْ فِي هَذَا الْمَثَلِ الْعَظِيمِ، الَّذِي ضَرَبَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ، مُشَبِّهًا هَذَا الْوَحْيَ النَّازِلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى قَلْبِهِ ﷺ، بِالْمَاءِ النَّازِلِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، فَالْمَاءُ النَّازِلُ وَاحِدٌ، وَلَكِنَّ الْأَرْضَ مُتَبَايِنَةٌ تَبَايُنًا كَبِيرًا؛ فَبِحَسَبِ طَيْبِهَا وَلَيْنِهَا تَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ، فَإِنْ كَانَتْ طَيِّبَةً، قَبِلَتْ الْمَاءَ وَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَإِنْ كَانَتْ خَبِيثَةً، وَنَزَلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ، فَلَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهَا لَا تُنْبِتُ الْكَلَاءَ وَلَا تُمْسِكُ الْمَاءَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ، رَقْمُ (٧٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»: كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ بَيَانِ مَثَلِ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، رَقْمُ (٢٢٨٢).

كَذَلِكَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدُ مَعَ الْقُلُوبِ، فَمَنْ كَانَتْ أَرْضُ قَلْبِهِ طَيِّبَةً انْتَفَعَ بِالْقُرْآنِ، وَمَنْ كَانَتْ أَرْضُ قَلْبِهِ خَبِيثَةً لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، بَلْ يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿... وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءُوهُ عَلَيْهِمْ عَمَىٰ أُولَٰئِكَ يَنْادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (١): «وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ: فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاطِقِ الْقَلْبِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَعْقُلِهِ - وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ -، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ...﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ؛ لِيَتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا.

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ، مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطَلِّعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَدَافِيرِهِمَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا، وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَالَ أَهْلِهِمَا، وَتَتَلَّىٰ فِي يَدِهِ - أَيْ: تَضَعُ فِي يَدِهِ - مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشِيدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوَصِّلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعِ الطَّرِيقِ وَأَفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعَرِّفُهُ مُقَابِلَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أُخْرَى: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ، ضَرُورِيٌّ لِلْعَبْدِ مَعْرِفَتِهَا، وَمُشَاهَدَتِهَا، وَمُطَالَعَتِهَا؛ فَتُشْهِدُهُ الْآخِرَةَ حَتَّىٰ كَانَتْ فِيهَا، وَتُغَيِّبُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ كَانَتْ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ

وَالْبَاطِلُ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ؛ فَتَرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ
فُرْقَانًا وَنُورًا، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ،
وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَأَنْشِرَاحًا، وَبَهْجَةً وَسُرُورًا؛ فَيَصِيرُ فِي شَأْنِ النَّاسِ فِي شَأْنِ آخَرَ.

فَإِنَّ مَعَانِي الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ
أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزِّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ، وَذِكْرِ
بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدِلَّةِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ، وَحُقُوقِ مُرْسَلِهِمْ،
وَعَلَى الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِأُذُنِهِ
وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوعِ
الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُمْ، مِنْ حِينِ يَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ، إِلَى يَوْمِ يُوَفِّي رَبَّهُ وَيَقْدُمُ عَلَيْهِ؛
وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ دَارِ النِّعَمِ الْمُطْلَقِ، الَّتِي
لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِالْمِ وَلَا نَكَدٍ وَلَا تَنْغِيصٍ، وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ
الْوَبِيلِ، الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا سُرُورٌ، وَلَا رَخَاءٌ، وَلَا رَاحَةٌ، وَلَا فَرْحٌ، وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ
أَتَمَّ تَفْصِيلٍ وَأَبْيَنَهُ، وَعَلَى تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالشَّرْعِ وَالْقَدْرِ، وَالْحَلَالِ
وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ،
وَالْمَبَادِي وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهَضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ
بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحْتُهُ عَلَى التَّصَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ،
وَتَهْدِيهِ فِي ظُلْمِ الْأَرَءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ

الْبَدْعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبَعْتُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتَبَصَّرَهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتَوَقَّفَهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتَثَبَّتْ قَلْبُهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهَّلَ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصَّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ، وَوَنَى فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللِّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ! وَتَحَدُّو بِهِ، وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَاعْتَصِمْ بِاللَّهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأْمُلِ الْقُرْآنِ وَتَذَكُّرِهِ، وَتَفْهَمِهِ، أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ.



حُكْمُ التَّدْبِيرِ

وَأَمَّا حُكْمُ التَّدْبِيرِ: فَتَدْبِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ أَجْلِ الطَّاعَاتِ، وَأَفْضَلِ الْقُرْبَاتِ، وَأَسْمَى الْعِبَادَاتِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ خِلَالِهِ يَفْهَمُ الْإِنْسَانُ مُرَادَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «أَيُّ: هَذِهِ الْحِكْمَةُ مِنْ إِنْزَالِهِ، لِيَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ؛ فَيَسْتَخْرِجُوا عِلْمَهَا، وَيَتَأَمَّلُوا أَسْرَارَهَا وَحِكْمَهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْحَثِّ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ الْقِرَاءَةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى التَّدْبِيرِ أَفْضَلُ مِنْ سُرْعَةِ [الْقِرَاءَةِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ هَذَا الْمَطْلُوبَ]»^(٢).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣): «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّرْتِيلَ أَفْضَلُ مِنَ الْهَدِّ - وَهُوَ سُرْعَةُ الْقِرَاءَةِ بِلَا تَأَمُّلٍ -، إِذْ لَا يَصِحُّ التَّدْبِيرُ مَعَ الْهَدِّ. وَقَالَ الْحَسَنُ: «تَدْبِيرُ آيَاتِ اللَّهِ اتِّبَاعُهَا»^(٤).

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ٧١٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

(٢) في الأصل: [التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود].

(٣) «الجامع لأحكام القرآن»: ١٥/ ١٩٢.

(٤) تقدم تخريجه.

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ^(١): «فَصُلِّ فِي كَرَاهَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ: تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ، وَعَلَيْهِ حُمِلَ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ»^(٢)، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ -لِمَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَقُومُ بِالْمُفَصَّلِ فِي رَكْعَةٍ-: «أَهَذَا»^(٣) كَهَذَا الشُّعْرِ؟!«^(٤)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي

(١) «البرهان في علوم القرآن»: ٤٥٥/١، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الصلاة، باب في كم يُقرأ القرآن، رقم (١٣٩٠)، وأيضاً في: باب تحزيب القرآن، رقم (١٣٩٤)، والترمذي في «الجامع»: كتاب القراءات، باب ١٣، رقم (٢٩٤٩)، وابن ماجه في «السنن»: كتاب إقامة الصلاة، باب في كم يُستحبُّ يُختم القرآن، رقم (١٣٤٧).

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، والحديث صحح إسناده الألباني في «صحيح أبي داود»: ١٣٥/٥ و١٣٨، رقم (١٢٥٧ و١٢٦٠).

(٣) قال ابن حجر في «فتح الباري»: ٢/٢٥٩: «قَوْلُهُ «هَذَا»، بِفَتْحِ الْهَاءِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ الْمُعْجَمَةِ، أَي: سَرْدًا وَإِفْرَاطًا فِي السَّرْعَةِ».

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب فضائل القرآن، باب الترتيل في القراءة، رقم (٥٠٤٣) ومواضع، ومسلم في «الصحيح»: كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة واجتناب الهدء، رقم (٨٢٢)، وتمامه: «... إِنَّا لَقَدْ سَمِعْنَا الْقُرَّائِنَ، وَإِنِّي لَأَحْفَظُ الْقُرَّائِنَ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُونَهَا رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مِنَ الْمُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حَم».

وزاد مسلم في رواية، أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «... إِنَّا أَقْوَامًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعٌ، إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ الرُّكُوعُ

صِفَةِ الْخَوَارِجِ: «يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ وَلَا حَنَاجِرَهُمْ»^(١)،
فَذَمَّهُمْ بِإِحْكَامِ لَفْظِهِ، وَتَرَكَ التَّفْهِيمَ لِمَعَانِيهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَارَى الْقُرْآنَ الْجَاهِلُ بِمَعَانِيهِ مَأْجُورٌ؛ وَقَدْ وُجِّهَ هَذَا السُّؤَالُ
لِلْعَلَّامَةِ ابْنِ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ^(٢): «أَدَاوِمُ عَلَيَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، لَكِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعَانِيهِ؛
فَهَلْ أَثَابُ مِنَ اللَّهِ عَلَيَّ ذَلِكَ؟».

فَأَجَابَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مُبَارَكٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿كُنْتُ أَرْزُلُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبُرُوا عَيْنِيهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

فَالْإِنْسَانُ مَأْجُورٌ عَلَيَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، سَوَاءً أَفْهَمَ مَعْنَاهُ أَمْ لَمْ يَفْهَمْ، لَكِنِ لَا
يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْرَأَ قُرْآنًا مُكَلَّفًا بِالْعَمَلِ بِهِ، دُونَ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَاهُ، فَالْإِنْسَانُ لَوْ
أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الطَّبَّ مَثَلًا، وَدَرَسَ كُتُبَ الطَّبِّ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا حَتَّى
يَفْهَمَ مَعْنَاهَا وَتُشْرَحَ لَهُ؛ بَلْ هُوَ يَحْرِصُ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَيَّ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَاهَا مِنْ

وَالسُّجُودُ...»، ووقع فيها أيضا تسمية الرجل بنهيك بن سنان.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ عِلْمَاتِ النَّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، رَقْم (٣٦١٠) ومواضع، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ ذِكْرِ الْخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ، رَقْم (١٠٦٤)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) إذاعة القرآن الكريم: برنامج نور على الدرب، الشريط (٨٥): الوجه الأول، ١٣.٣٥ دقيقة.

أَجَلٍ أَنْ يُطَبَّقَهَا، فَمَا بِأَلْكَ بِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ الَّذِي هُوَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَمَوْعِظَةٌ لِلنَّاسِ، أَنْ يَقْرَأَهُ الْإِنْسَانُ بِدُونِ تَدَبُّرٍ وَبِدُونِ تَفَهُمٍ لِمَعْنَاهُ؟

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ (١). فَالْإِنْسَانُ مُثَابٌ وَمَأْجُورٌ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، سَوَاءٌ أَفْهَمَ مَعْنَاهُ أَمْ لَمْ يَفْهَمْ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْرِصَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى فَهْمِ مَعْنَاهُ، وَأَنْ يَتَلَقَّى هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُوثِقِينَ، مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ، وَتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَغَيْرِهِمَا.

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ الدِّينِ، وَعَلَى ذَلِكَ أَطْبَقَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرَهُ، وَصَلَ بِذَلِكَ التَّدَبُّرِ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا يَتَنَاقِضُ وَلَا يَخْتَلِفُ أَبَدًا، فَلَا يُمَكِّنُ بِحَالٍ أَنْ تَجِدَ آيَةً تُخَالِفُ الْأُخْرَى أَوْ تُنَاقِضُهَا، وَبِهَذَا يَزْدَادُ الْمُؤْمِنُ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِ، حَتَّى يَرَى الْقُرْآنَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ؛ تَكَرَّرُ الْقِصَّةُ مَثَلًا بِأَسَالِيبَ مُتَنَوِّعَةٍ، طَوَّلًا وَقِصْرًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا أَدْنَى شَيْءٍ مِنَ التَّنَاقُضِ أَوْ الْإِخْتِلَافِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(١) زاد في الأصل: [فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

[فصلت: ٤٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حَقًّا، وَنَزَلَ بِالْحَقِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].



جامعة

مِنْهَاجُ النَّبِيِّ

www.menhag-un.com

مَعْنَى النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ مَنْزِلَةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، أَنَّهُ مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ، الَّتِي هِيَ الدِّينُ - كَمَا مَرَّ -، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ؟

قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

وَقَدْ بَيَّنَّ الْحَافِظُ أَبُو رَجَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْنَى النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ^(٢):
«وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَشِدَّةُ حُبِّهِ، وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ - إِذْ هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ -، وَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِتَدَبُّرِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ؛ لِطَلَبِ مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، أَوْ يَقُومَ بِهِ لَهُ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ [مِنَ الْعِبَادِ]^(٣)، يَتَفَهَّمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ، وَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْهُ، عُنِيَ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ

(١) أخرجه مسلم في «الصحیح»: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، رَقْمُ (٥٥)،

مِنْ حَدِيثِ: تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «تعظيم قدر الصلاة»: ٢ / ٦٩٣.

وَهُوَ مِنْ كَلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ الْمُرُوزِيِّ، وَقَدْ نَقَلَهُ ابْنُ رَجَبٍ فِي «جامع العلوم».

(٣) كَذَا فِي «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: ١ / ٢٢١، وَفِي الْأَصْلِ: [مِنَ الْقَلْبِ].

عَلَيْهِ بِمَا كَتَبَ بِهِ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ النَّاصِحُ [لِكِتَابِ رَبِّهِ، يُعْنَى: بِفَهْمِهِ] (١)؛ لِيَقُومَ لِلَّهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، ثُمَّ يَنْشُرُ مَا فَهِمَ فِي الْعِبَادِ، وَيُدِيمُ دِرَاسَتَهُ بِالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ، وَالتَّادِبِ بِأَدَابِهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ (٢): «يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، كَمَا بَيْنَ لَهُمُ الْفَاطَهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرَأُونَ الْقُرْآنَ: كَعُثْمَانَ بْنِ عِفَانَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعَيْرِهِمَا، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا» (٣)؛ وَلِهَذَا كَانُوا يَبْقُونَ مُدَّةً فِي حِفْظِ السُّورَةِ. وَقَالَ أَنَسٌ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، جَلَّ فِي أَعْيُنِنَا» (٤)، وَأَقَامَ ابْنُ

(١) كذا في «الجامع»، وفي الأصل: [لِكِتَابِ اللهِ، يُعْنَى: يَفْهَمُهُ].

(٢) «مجموع الفتاوى»: ١٣ / ٣٣١ و ٣٣٢.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى»: ١٧٢ / ٦، وابن أبي شيبة في «المصنف»: ١٠ / ٤٦٠ و ٤٦١، رقم (٢٩٩٢٩)، وأحمد في «المسند»: ٥ / ٤١٠، رقم (٢٩٩٢٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ»: ٢ / ٥٩٠، وابن وضاح في «البدع»: ٢ / ١٧٠، رقم (٢٥٥)، والفريابي في «فضائل القرآن»: ص ٢٤١، رقم (١٦٩)، والطبري في «جامع البيان»: ١ / ٣٦، بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند»: ٣ / ١٢٠ و ١٢١، وابن حبان في «صحيحه» بترتيب ابن بلبان: ٣ / ١٩، رقم (٧٤٤)، بإسناد صحيح، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ

عُمَرَ عَلَى حِفْظِ الْبَقْرَةِ عِدَّةَ سِنِينَ^(١)، قِيلَ: ثَمَانِ سِنِينَ، ذَكَرَهُ مَالِكٌ^(٢). وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَتَدَبَّرَ الْكَلَامَ بِدُونِ فَهْمٍ مَعَانِيهِ لَا يُمَكِّنُ، وَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ، كَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ -أَيُّ: يَطْلُبُوا شَرْحَهُ- فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟».

لِهَذَا كَرِهَ أَهْلُ الْعِلْمِ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِلَا تَدَبُّرٍ وَلَا تَفْهَمٍ؛ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ، وَعَلَيْهِ حُمِلَ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ»^(٣)، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ لِمَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ

الْبَقْرَةَ، وَالْأَمْرُ عَمْرَانَ عُدَّ فِينَا ذُو شَأْنٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «يُعَدُّ فِينَا عَظِيمًا».

وَالْحَدِيثُ أَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحِينَ».

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى»: ١٦٤ / ٤، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ مَيْمُونٍ، هُوَ ابْنُ

مِهْرَانَ: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ تَعَلَّمَ سُورَةَ الْبَقْرَةِ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ».

(٢) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» رِوَايَةً يَحْيَى: ٢٠٥ / ١، رَقْمٌ (١١)، بِبَلَاغَا: «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ

عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقْرَةِ ثَمَانِي سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا»، وَمِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ، أَخْرَجَهُ أَيْضًا:

أَحْمَدُ فِي «الْعِلَلِ» رِوَايَةً ابْنَهُ عَبْدِ اللَّهِ: ٧٢ / ٢، رَقْمٌ (١٥٨٧)، وَابِيهَيْقِي فِي «شُعَبِ

الْإِيمَانِ»: ٣ / ٣٤٥، رَقْمٌ (١٨٠٣ و ١٨٠٤)، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣١ / ١٦٠، تَرْجُمَةٌ (٣٤٢١).

(٣) تَقْدِيمُ تَخْرِيجِهِ.

يُقَوْمُ بِالْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ: «أَهَذَا كَهَذَا الشُّعْرِ؟!»^(١)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي صِفَةِ
الْخَوَارِجِ: «يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ وَلَا حَنَاجِرَهُمْ»^(٢)، فَذَمَّهُمْ بِإِحْكَامِ
الْفَاضِلِ وَتَرْكِ التَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ^(٣): «الْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلُ
بِهِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ^(٤): «وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمِينَ بِهِ،
وَالْعَامِلِينَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ؛ وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ،
وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ».

وَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، يُدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:
«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدِمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ،
وَأَلِ عِمْرَانَ كَأَنَّهِنَّ غَمَامَتَانِ، أَوْ ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ».

الظُّلَّةُ - بِضَمِّ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ -: أَيُّ سَحَابَةٍ لَهَا ظِلٌّ، وَكُلُّ مَا أَظْلَمَ مِنْ سَقِيْفَةٍ
وَنَحْوِهَا يُسَمَّى ظُلَّةً.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى»: ٥٥ / ٢٣.

(٤) «زاد المعاد»: ٣٢٧ / ١.

وَشَرْقٍ -بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِهَا-، أَي: ضِيَاءٌ وَنُورٌ^(١).

إِذَنْ: يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَفِي تَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ كَأَنَّهِنَّ غَمَامَتَانِ، أَوْ ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهِنَّ حِرْقَانِ^(٢) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

إِذَنْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هِمَّةً حَافِظِ الْقُرْآنِ فَهَمَّ الْمَعْنَى، وَمِنْ ثَمَّ الْعَمَلِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ! مَا نَصِيحِكَ مِنْ تَدَبُّرِ مَا تَتْلُو مِنْ كَلَامِ رَبِّكَ؟

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسِئُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم»: ٩١ / ٦.

(٢) الحزق والحزيقة: الجماعة من كل شيء، انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير: حرف الحاء، باب الحاء مع الزاي، ٣٧٨ / ١.

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن، رقم (٨٠٥)، من حديث: النّوّاس بن سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

وَقَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه: «يَسْتَبْطِئُهُمْ، وَهُمْ أَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ» (٢).

وَالْمَقْصُودُ مِنَ (الَّذِينَ ءَامَنُوا): إِمَّا بَعْضُ مِنْهُمْ، رَبَّمَا كَانُوا مُقْصِرِينَ عَنِ جُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ؛ فَأَرَادَ اللَّهُ إِيقَاطَ قُلُوبِهِمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ، عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالِ الرَّسُولِ صلوات الله وسلاماته عليه فِي التَّعْرِيفِ، كَقَوْلِهِ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا»، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ وَلَيْسَ مَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مُقْتَضِيًا أَنَّ مِثْلَهُ مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لَكِنَّهُ يَخْشَى مِنْهُمْ حَذْرًا وَحَيْطَةً، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَحْرِيفًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُرَاقَبَةِ ذَلِكَ وَالْحَذَرِ مِنَ التَّقْصِيرِ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ خِيَارَ الْخَلْقِ مُخَاطَبُونَ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الْإِخْلَالِ بِحَقِّ الْقُرْآنِ مِنَ الْخُشُوعِ وَالتَّدَبُّرِ.

فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى قُرَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُ مِائَةٍ رَجُلٍ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ»

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»: كِتَابُ التَّفْسِيرِ، بَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، رَقْمُ (٣٠٢٧).

(٢) ذَكَرَهُ الْمَاورِدِي فِي «تَفْسِيرِهِ»: ٥/ ٤٧٧، وَالشُّوكَانِي فِي «فَتْحِ الْقَدِيرِ»: ٥/ ٢٠٧.

وَقَرَأُوهُمْ، فَاتْلُوهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُوا قُلُوبَكُمْ، كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ؛ لِيَتَذَكَّرَ وَيَعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا»^(٢).

لَقَدْ عَرَّضَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالَّذِينَ لَمْ يَتَذَكَّرُوا بِالْقُرْآنِ وَلَمْ يَتَذَبَّرُوهُ، بِوَصْفِهِمْ بِضَعْفِ عُقُولِهِمْ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فِيهِ تَعْرِيفٌ بِأَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَتَذَكَّرُوا بِالْقُرْآنِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْعُقُولِ، وَأَنَّ التَّذَكُّرَ مِنْ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، فَهُمْ مِمَّنْ تَذَبَّرُوا آيَاتِهِ فَاسْتَبَطُوا مِنَ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَعْلَمُوا، وَمَنْ قَرَأَهُ فَتَذَكَّرَ بِهِ مَا كَانَ عَلِمَهُ، وَتَذَكَّرَ بِهِ حَقًّا، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرَعَاهُ، وَالْكَافِرُونَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّذَكُّرِ، فَلَا جَرَمَ فَاتَهُمُ التَّذَكُّرُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۖ ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِيُزِيدَكَ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا...﴾ [المائدة: ٦٤].

(١) أخرجه مسلم في «الصحیح»: كِتَابِ الرِّكَاعَةِ، بَابُ لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ لِأَبْتَعَى ثَالِثًا،

رقم (١٠٥٠).

(٢) تقدم تخريجه.

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (١): «وَهَذَا أَعْظَمُ الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْعَبْدِ، أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفَلَاحُ الدَّارَيْنِ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَّةٍ أَمْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَيَّ عِبَادِهِ، تُوجِبُ عَلَيْهِمُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى قَبُولِهَا، وَالِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ بِهَا، وَشُكْرًا لِلَّهِ عَلَيْهَا، أَنْ تَكُونَ لِمِثْلِ هَذَا زِيَادَةٌ غَيِّ إِلَى غَيِّهِ، وَطُغْيَانٍ إِلَى طُغْيَانِهِ، وَكُفْرٍ إِلَى كُفْرِهِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنْهَا، وَرَدِّهِ لَهَا، وَمُعَانَدَتِهِ إِيَّاهَا، وَمُعَارَضَتِهِ لَهَا بِالشُّبْهِ الْبَاطِلَةِ».

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ ضَرُورَةٌ، وَهُوَ يَلْزِمُ كُلَّ مُسْلِمٍ -مَتَى بَلَغَ الْحُلُمَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ- أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَحُوزَ كِتَابَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آدَاءً وَلُطْفًا.

فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ قَدْرِهِ وَعَظَمَتِهِ وَأَهْمِيَّتِهِ فِي الدِّينِ، مَعَ ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يُحْصَلُ بِهَا التَّدَبُّرُ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ الْكَبِيرِ. وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



